الفصل الثالث عشر

القرن التاسع عشر شرقي أفريقيا وشمال شرقيها

لم يكن العنصر المؤثر في شرقي أفريقيا وشمال شرقيها أوروبيًّا، بل كان عربيًّا ومصريًّا وذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر. ففي شرقي أفريقيا، كان كل شيء عربيًّا وخاصة في المناطق الساحلية من ساحل رأس (دلجادو) حتى (لامو). وكذلك كانت الحال في الصومال الذي كان يخضع لأسرة البوصيري التي كان مقرها عمان على السواحل الغربية للخليج الفارسي، وذلك منذ أن حرر العثمانيون الساحل الشرقي لأفريقيا من البرتغاليين وكانت سيطرة عمان أقوى في عهد الإمام سيد سعيد الذي حكم منذ عام ١٨٠٦ حتى عام ١٨٥٦.

واستطاع الإمام سيد أن يحصل على الضرائب من التجار بواسطة أسطوله الذي بناه واتخذ من زنزبار قاعدة لتكون ميدانًا لنشاطه، فبدأ فيها مزرعة للقرنفل للحصول على زيت القرنفل. وفي نهاية حكمه، كانت زنزبار تصدر ثلاثة أرباع احتياجات العالم من القرنفل كما أصبحت كذلك أهم ميناء في شرقي أفريقيا لكثير من البضائع التي كانت ترد من الهند وأوروبا وأمريكا، وملتقى السفن التي تحمل صادرات المنطقة من الرقيق والعاج. وكان الإمام سيد يمضي معظم وقته فيها وفي سنة ١٨٤٠ اتخذ منها عاصمة له وتكونت حوله طبقة من العرب الأثرياء كأصحاب المزارع. أما الباقي، فكانوا يقومون بجمع الثروات بتشجيع من الإمام عن طريق قوافل

التجار داخل زنزبار نفسها ولم يكن التجار من العرب وسكان السواحل التجار الوحيدين الذين يقومون بالتجارة، بل كان بجانبهم شعب نياموبزى في وسط تنجانيقا الغربية الذين كانوا الرواد الأول للطرق الموصلة إلى زنزبار.

وفي خلال القرن التاسع عشر، استطاع أهل نياموبزى إنشاء مركز ممتاز لتحسين التجارة في المنطقة. فقد فتحوا في السنوات من ١٨٢٠– ١٩٣٠ الطرق حتى وصلت إلى كاتانجا الجنوبية. كما نظموا التجارة مع دول كانت في غرب بحيرة فيكتوريا، مثل: كاراجواي– وبوجندا– وبونيورو.

وإذا كان العرب تفوقوا عليهم، فإن السبب يرجع إلى تنظيمهم الأكثر اتساعًا وقدرتهم المالية. وبينما كان تجار نياموبزى يتجرون في الأقمشة والخرز، كان سكان السواحل يتجرون في السلع الغالية كالسلاح الذي كان يقبل على شرائه الحكام الأفريقيون. وتمكن العرب من إدخال بعض التنظيم الداخلي، فأقاموا المخازن في طابورة ويوجيجي على بحيرة تنجانيقا وتمكن بعض رجال السواحل من نياموبزى من هزيمة الملوك المحليين ونصبوا أنفسهم محلهم. هذا في الوقت الذي كان العرب يحصلون فيه على العاج والعبيد عن طريق التجارة وليس عن طريق القوة والاغتصاب. ثم تسلح الحكام وازدادت القوى قوة وذلك على حساب جيرانه الضعفاء. فهاجم زعماء ياو شعب بحيرات نياسا الأعزل. وفي أوغندا، أغارت جيوش كاباكا في بوجندا على ولاية سوجا المتفككة في الشرق وعلى ولايات هايا في الجنوب وكانوا يبيعون العبيد والعاج إلى العرب بأسعار مغرية ويحصلون مقابل ذلك على الأسلحة والأقمشة.

وفي أوغندا في منتصف القرن التاسع عشر، امتد نفوذ زنزبار التجاري من الساحل الشرقي إلى الجنوب، كما وصل إلى الخرطوم وكان العرب هناك يلقبون بالترك وسلطان تركيا هو الحاكم الأسمى لمصر. في حين يحكم مصر والسودان الخديوي وأولاده. فقد فتح مُحَمَّد علي السودان سنة ١٨٢٠ وعزل حاكم الفنج في سنار وعين بدلًا منه حاكمًا مصريًّا في العاصمة الجديدة، وهي الخرطوم، وذلك لضمان وصول الرقيق لتجنيدهم في الجيش المصري، إذ كانت الغارات لجمع الرقيق هي العمل الرسمي للحكومة.

وفي خلال الثلاثين سنة التالية، قامت سلسلة من الاكتشافات بين النيل الأزرق والنيل الأبيض جنوبي الخرطوم، حيث تقيم قبائل الدنكا والنوير والشلك وباري في منطقة بحر الغزال وبحر الجبل.

وفي عام ١٨٣٩، أُقيم مركز عسكري في غندو كرو قرب حدود أوغندا والسودان. وفي الفترة ما بين ١٨٥٠، ١٨٦٠ استولت الخرطوم على تجارة الرقيق والعاج ولكن بالطرق العسكرية وليست بالطرق التجارية، وذلك في مناطق بحر الغزال وشمال أوغندا، إذ كانوا يغيرون على تلك المناطق ويستولون على المواشي ويردونها ثانية مقابل العاج والرقيق ومقابل الطعام والمؤن، وسرعان ما أدرك أهالي الخرطوم أنهم لا يستطيعون الصمود في وجه منافسيهم في زنزبار؛ حيث يأخذون الرقيق والعاج مقابل بضائع قيمة.

لم يبدأ الضغط الأوروبي على المنطقة التي تعتبر امتدادًا للاحتلال البرتغالي إلا في القرنين السادس والسابع عشر، عندما بدأت المصالح البريطانية تتعرض للتهديد من جانب نابليون، فعقدت بريطانيا المعاهدات

مع سلطات مسقط وزنزبار لتوسيع نفوذها، فضلًا عن أن ضمان وقوف قوة عربية قوية على الشاطئ الغربي للمحيط الهندي (شرقي أفريقيا) يحقق لبريطانيا السيطرة على المنطقة.

وفي عام ١٨٢٢، عندما كان الإمام سيد سعيد ما زال في مسقط، استطاعت بريطانيا أن تحد من تصدير الرقيق إلى الهند وعندما انتقل السلطان سعيد إلى زنزبار سنة ١٨٤٠ كان القنصل البريطاني أول من قدم أوراق اعتماده في البلاط السلطاني، ثم عقدت بريطانيا مع السلطان اتفاقية أخرى بعد ذلك بخمس سنوات لبسط نفوذها على المنطقة.

وفي سنة ١٨٦١ أي بعد وفاة السلطان بخمس سنوات، انقسمت السلطنة فتولى أحد الأبناء مسقط وتولى الابن الآخر (برقش) زنزبار الذي أصدر مرسومًا تحت تهديد مدفعين للأسطول يعلن فيه تحريم تجارة الرقيق. وبذلك أغلق أكبر سوق للرقيق في شرقي أفريقيا ثم أنشأ البريطانيون هناك كنيسة كبيرة في الجزيرة.

ومما لا شك فيه أن مجهودات بريطانيا لمقاومة الرقيق كان لها أنجح الآثار في شرقي أفريقيا وانقطع تصدير الرقيق إلى أسواق آسيا. ولم يحرم الرقيق تحريمًا باتًّا إلا بعد عام ١٨٧٣ وذلك بعد الاستعمار البريطاني وأخذ يزداد تبعًا لذلك حجم تجارة العاج وتحول سكان الساحل إلى البحث عن العاج داخل أفريقيا. ولكن جمع العاج يحتاج إلى مجهود أكبر من جمع الرقيق؛ ذلك لأن نقل العاج يعتمد على الحمالين من البشر الذين كان أغلبهم من الرقيق. وعلى كل حال لم تكن هناك تجارة على الساحل

الشرقي تعادل تجارة زيت النخيل على الساحل الغربي.

وفي الإمبراطورية المصرية لم يحتج الأمر إلى ضغط كبير في تحريم تجارة الرقيق؛ إذ استجاب الخديوي إلى ذلك واستعان بصمويل بيكر ثم غوردون كحكام وذلك لتنفيذ سياسة جديدة لتحريم الرقيق في الجزء الجنوبي من الإمبراطورية المصرية، وكان لابد تعويض الدخل الذي انقطع بمنع الرق وفعلًا أخذت تجارة العاج تعوض هذا الدخل وإن كان تحريم الرق قضى على بعض الجماعات الضعيفة في جنوبي السودان.

وقد صادف بيكر بعض النجاح في السيطرة على تجارة العاج وذلك عبر الحدود المصرية جنوبًا حتى أوغندا. أما غوردون الذي خلف بيكر كحاكم للإقليم الاستوائي، وجد أن الاستيلاء على الساحل أمر ضروري للمحافظة على تجارة العاج، فأرسل إسماعيل بناء على مشورة غوردون الإنجليزي حملة اكتشافية بحرية لاحتلال كيسمايو دون أن يفكر إسماعيل في أن هذه المنطقة تحت سيطرة زنزبار وعند وصول القوات إلى هناك أرغمت– بناء على تدخل وضغط السياسة البريطانية على الانسحاب. كما فشل[٤] غوردون في إخضاع باتتروبوجندا وبونبورو للنفوذ المصري وذلك بسبب طول خطوط المواصلات وانسحبت القوات المصرية قبل ثورة المهدي سنة ١٨٨١ وبذلك انتهت إدارة السودان بمعرفة المصريين.

---

(٤) كان الإقليم الاستوائى يمتد جنوباً حتى يشمل الأراضى التي تشغلها أوغنده الآن وقد انسحب غوردون مع قواته من منطقة أوغنده أى من الأجزاء الجنوبية للإقليم الاستوائى بحجة كثرة الملاريا وافتراس الأهالى لجنوده. ولكن الحقيقة أنه اتفق مع حكومته في لندن على الانسحاب تمهيداً لاحتلال أوغنده فيما بعد بصفتها تسيطر على منابع النيل.

وتدل سيطرة مصر وزنزبار على المنطقة الاستوائية؛ على مدى ما حققته الأسلحة النارية الأوروبية وتفوقها على الحراب والأقواس التي كانت سلاح الأفريقيين.

وفي النصف الأخير من القرن التاسع عشر، قامت قوة ثالثة جديدة بين القوتين المصرية والزانزبارية وهي الحبشة التي حققت نجاحًا مماثلًا في الحملات الاكتشافية على جيرانها. هذا وقد بدأ اتساع الحبشة متأخرًا عن مصر وزنزبال؛ بسبب الفوضى الداخلية التي كانت الحبشة غارقة فيها خلال منتصف القرن الثامن عشر ولذا كانت الحبشة مفككة. فقد استطاع رأس كاسا الاستيلاء على الجزء الشمالي الغربي من الحبشة وتمكن رأس كاسا من الاستيلاء على الحبشة في سنة ١٨٥٥ وتوج نفسه إمبراطورًا عليها في أكسوم وتُسمى باسم تيودور، ثم وضع الأساس لجيش نظامي تمكن من القضاء على سكان جالا الوثنيين الذين كانوا يتحكمون في الجزء الجنوبي والجنوب الغربي من البلاد منذ القرن السادس عشر. وعلى ذلك، فإن تيودور هو الذي وحد إقليم تجرة وأمهرة في الشمال من الإقليم الجنوبي (شوا). وتيودور هو الذي تسبب بتصرفه الأحمق مع مبعوثين بريطانيين في التدخل الأوروبي. وانتحر تيودور بإطلاق النار على نفسه سنة ١٨٦٧ عندما حاصرت التأديبية بقيادة سير روبرت نابير قلعة ماجدالا وهجره الكثير من أتباعه.

لقد كان لتفوق أسلحة الحملة التأديبية أعمق الأثر على جون الرابع خليفة تيودور، وهو زعيم من تجرة حارب حتى وصل إلى العرش معتمدًا على الأسلحة التي حصل عليها من البريطانيين مقابل مساعدتهم في الحملة على ماجدالا.

كما كان للأسلحة البريطانية مفعول آخر على منليك ملك شوا الذي أصبح قويًّا حتى اضطر جون في سنة ١٨٧٨ أن يعتبره خليفته على العرش، وخلال السنوات التي انتظر فيها منليك انتقال العرش إليه، أخذ ينمي قوته ويزودها بالأسلحة الأوروبية كما كان يفعل بقية حكام أفريقيا فالمزيد من العاج يقابله مزيد من الأسلحة وأخذ يوسع مملكته شرقًا وغربًا وجنوبًا على حساب أراضي الصومال وهرر وأوغندا وجالا وكافا. وكان منليك يعتبر في نظر المؤرخين الأوروبيين حدثًا استثنائيًّا فهو ذلك الأفريقي الزاحف إلى أفريقيا. وإن كان في حقيقة الأمر لا يختلف عن موميتا حاكم بوجندا وكابا ريجا حاكم يونيورو ومسيري حاكم كاتانجا.

تلك هي حالة أفريقيا عندما بدأ الفرنسيون والبريطانيون بواسطة ممثليهم الدبلوماسيين في امتداد نفوذهم من القاهرة وزنزبار.

ولولا هذا التدخل الأوروبي لاستمر النفوذ العربي قائمًا متحدًا مترابطًا لا على الساحل الشرقي والسودان الشمالي فحسب، بل على السودان الجنوبي وفي أجزاء كثيرة من أفريقيا الشرقية والكونغو ولما تمكنت الإرساليات التبشيرية من الوقوف أمام الإسلام في تلك المنطقة وحققت النجاح الذي حققته. ولو كان التدخل الأوروبي قد تأخر ٥٠ سنة لما انحصر الإسلام في الجزء الشمالي من القارة، بل امتدت الحضارة الإسلامية وشملت ثلثي قارة أفريقيا وأصبح أهلها مسلمين.